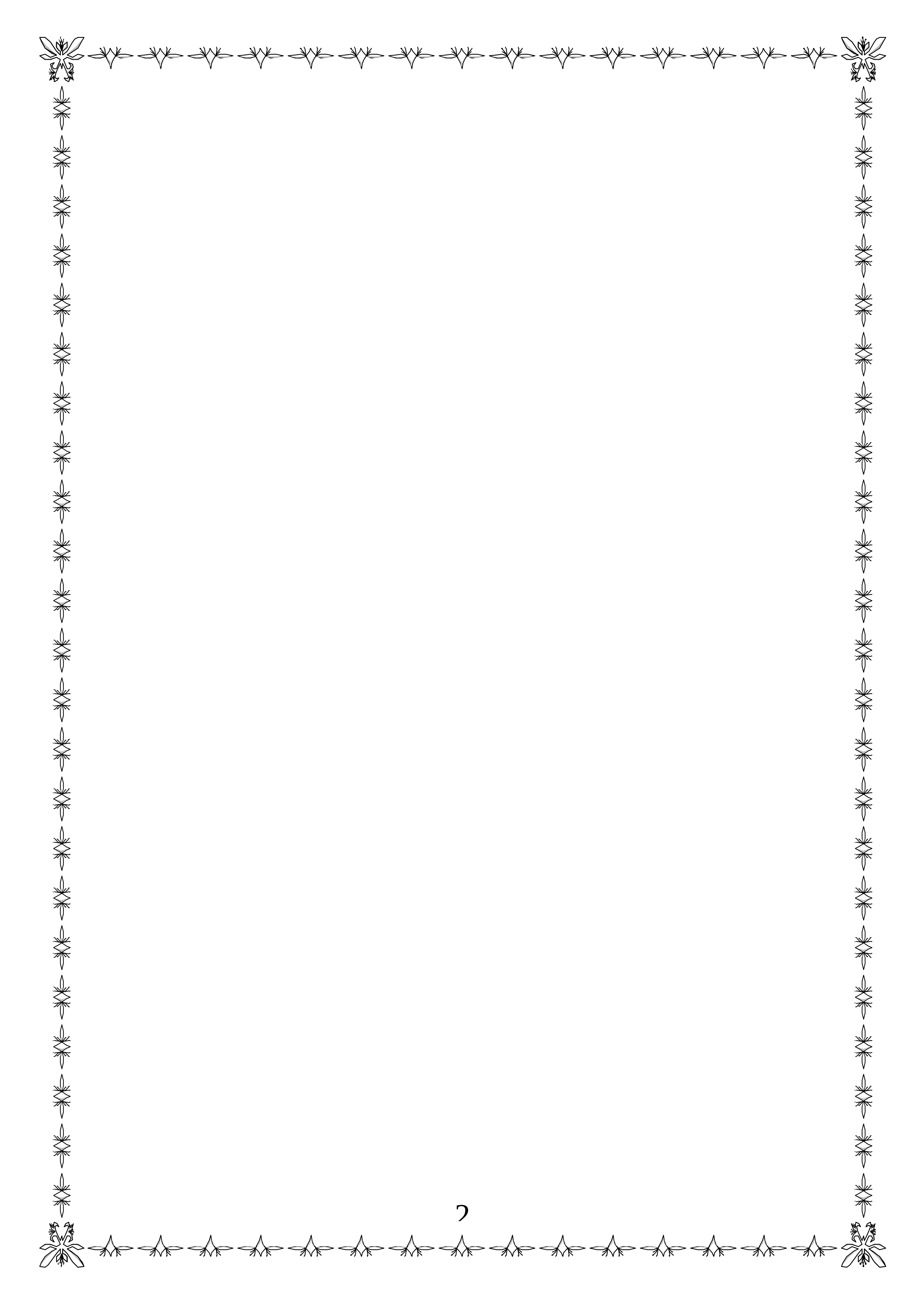
شوق وتذكير
بمناسبة ذكرى شيخنا
سيدي الحاج محمد بلكبير
طيّب الله ثراه
ورضي عنه وأرضاه

جمعه العبد الفقير: سليم بن الطّاهر رحموني

إمام خطيب ومدرِّس بمسجد التجانية بمدينة بسكرة

- الجزائر -



شوق وتذكير بمناسبة ذكرى شيخنا سيدي الحاج محمد بلكبير

طيّب الله ثراه ورضي عنه وأرضاه

الحمد لله الذي جعل العلماء صفوة خلقه, ورفع لهم منزلة وقدرا, وَفُّوا له بالعهود, فنشر لهم في الوجود ثناءً وذِكرا, زيّن بهم الزمان. وملأ بِعَرْف عِرفانهم الأكوان عِطرا. فسبحانه من إله قرن العلماء بنفسه في الشهادة على وحدانيّته, فقال:((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)). وجعلهم أهل خشيته, فقال:((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)), ورفع درجتهم بفضله ورحمته, فقال:((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)). وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أقام في كل عصرٍ مَن يُقتدى بهم في سلوك سبيل الرشاد, وأدام لهم في الآخِرين ذِكرًا جميلاً مدى الآماد, فجعلهم قادة لمَن بَعدهم في صنوف الخير من الصفاء والوفاء وانتهاج مسلك السداد, يَدعُون مَن ضلَّ من الناس إلى الهدى، ويَصبرون منهم على الأذى، يَحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصِّرون بنوُر الله أهل العمى، فكم قتيلٍ لإبليس قد أحْيَوْه، وكم ضالّ تائهٍ قد هدُوه، يَنْفوُن عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المُبطِلين، وتأويل الجاهلين. وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله, وصفيّه وخليله, وخِيرته من خلقه وحبيبه, اختاره الله بعلمه، وائتمنه على وحيه، واختار له خير العباد أعوانًا، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبّته، فآمنوا به وعزّروه ووقّروه، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، فاستشُهِد لله منهم مَنِ استُشهِد، على المنهاج الواضح، والبيع الرابح،

وتُوفِي منهم من تُوفي على الحقّ الناصع، والتوحيد الناصح، أولئك حِزبُ اللّه ألَا إِنَّ حِزب اللّه هُمُ المُفلِحُون.

يا حاضرين سماع الذِّكر في الأُذُنِ * وسالكين قويم النَّهج والسَّنَنِ

إن شِئتمُ تَظفروا بالفضل والمِنَنِ * وتَسلموا من جميع البُؤس والمِحَنِ

صلّوا على مَن أتى بالفرض والسُّنَنِ

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيِّدِنا محمّد, دُرُّة الأكوان, وهديّة الرحمان, وعلى آله البدور الحسان, وصحابته الليوث الشجعان, صلاة تختم لنا بها بخاتمة السعادة والإيمان, وتكسونا بها مَلْبس الرضى والرضوان, وتسكننا بها مع مَن أنعمتَ عليهم أعالي الفراديس وفسيح الجنان, بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين, يا رب العالمين.

أمّا بعد: فيا أيّها المسلمون, تحلّ علينا في هذا اليوم ذِكرى وفاة شيخنا وأستاذنا وقُدوتنا ومربّينا الشيخ سيدي الحاج محمد بلكبير, طيّب الله ثراه, ورضي عنه وأرضاه, وجعل الجنّة متقلّبه ومثواه.

ذِكرى رجلٍ أطبق الجميع على حُبّه, الكلّ مهتمّ به, ومتعلِّق بما له به صلة. تجدهم يميلون إليه بقلوبهم, ويتحدثّون عنه بكل خير في مجالسهم, ويتناقلون سلوكاته, ورغم وفاته منذ عقديْن من الزمن, لكنهّ لا زال حيّا في قلوبهم. رحم الله الإمام الشافعي حين قال:

قد ماتَ قومٌ وما ماتَتْ مكارِمُهُمْ * وعاشَ قومٌ وهُم في النّاسِ أمواتُ

نعم. فهو رضي الله عنه, حيٌّ بمنجزاته, حيٌّ بمآثره, وبما بَثّه في قلوب العباد من العلم والخير, يَثنون على عِلمه وعمله, وهذا الثناء منّا عليه هو فِعل الله تعالى, فألسنة الخلق أقلام الحق سبحانه.

جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في صحِيحَيْهما واللّفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال:((إنَّ اللَّهَ إذا أحَبَّ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ, فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ))، فلَا ترى في الناس إلاّ محبًّا له, مثنيًا عليه, رؤوفاً رحيمًا به, مِن غير تعرّض منه لأسباب هذا الحبّ, فلم يعمل له, ولم يسع إليه, ولم يخطر له على بال، وإنّما هو إجتباء رباني, يغرسه الله تعالى لأهله, في قلوب خلقه, من محبّة لا يملكون رَدّها. ومودّة لا يستطيعون إلّا الإقرار بها, والخضوع لسلطانها. قال تعالى:((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا)), وإنّ أعظم ما في هذا الودّ. أنّه آية بيّنة, ودليل ظاهر, على حبّ الله تعالى لأوليائه.

أيّها المسلمون, ولذلك ظفر شيخنا سيدي الحاج محمد بلكبير, رضي الله عنه, بهذه الدرجة العالية, كما يدلّ على ذلك الحديث الذي رواه أبو داوُد والتِّرمِذي وابنُ ماجه, وصحَّحهُ ابنُ حِبَّان, عن أبِي الدَّرداءِ رضي الله عنه مرفوعًا:((مَن سلَكَ طريقًا يلتَمِسُ فيهِ علمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طريقًا إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائِكَةَ لتَضعُ أجنحتَها لطالِبِ العلمِ رضًا بما يصنعُ, وإنَّ العالم ليستغفِرُ لَهُ مَن في السَّمواتِ ومن في الأرضِ، حتَّى الحيتانِ في الماءِ، وفضلَ العالِمِ على العابدِ كفَضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العُلَماءَ ورثةُ الأنبياءِ, إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا, إنَّما ورَّثوا العلمَ, فمَن أخذَهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ)), فقد صرّح هذا الحديث أنّ القَبول في الأرض لَا يُوضع لإنسانٍ إلاّ إذا رضي الله عنه, وأ حبَّه لطاعته لله تعالى,

وامتثال أوامره واجتناب نواهيه, واتّباع صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلَّم عن عِلم وفِقه واقتناع.

أيّها المسلمون. وكان من فضل الله على هذه البلَاد, أن جعل فيها رجالاً من ذوي العلم والرشاد, كانوا مصابيح ظُلمة, وينابيع الحكمة, على مرّ العصور, قد حملوا على كواهلهم النصح للمجتمع, وتبليغهم أحكام الشرع, ومحاربة المعاصي والمنكرات, والوقوف سَدًّا منيعا ضدّ الجهل وفِرَق الضلَالَات, فكان لِزامًا علينا في هذه المناسبة, وفي غيرها, تذكير الأجيال بعهود علمائنا الطيّبة, ودَورهم الفعّال. لتهتدي وتقتدي بهم هذه الأجيال, عَلَّها تَلْحق بسلفها من العلماء, في صِدقٍ وعِزٍّ وإباء, تَصلح بهم البلَاد, ويسعد بهم العباد. قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله:((سِيَر الرجال أحب إلينا من كثير الفقه, لأنّها آدابهم ومحاسنهم)).

أيّها المسلمون. والعلماء من أمثال شيخنا سيدي الحاج محمد بلكبير, طَيَّب الله ثراه, وجزاه عناّ كلَّ خير, هُم أئمّة الهدى في الأمّة المحمدية, الذين سخّرهم الله ببركة سيّدنا ومولَانا محمد رسول الله. صلى الله عليه وسلم, ليحفظوا سنّته من أن تَضيع. أو يلحقها تبديل أو تغيير.

فالعلماء للناس شموسٌ ساطعة، وكواكب لَامعة، وللأُمّة مصابيح دجاها، وأنوار هداها، بهم حُفِظ الدين وبه حُفظوا، وبهم رُفعت منارات المِلّة وبها رُفِعوُا. نعم؛ لَا يضر العالم أبدًا إهمال الناس له، أو تغافلهم عنه، أو جهلهم لقدره ومكانته؛ لأنّ الله رَفع قدره ومكانته، قال تعالى:((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)).

فهم يَحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصِّرون به أهل العمى، و يهدون به مَن ضلّ إلى الهدى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيَوْه، وكم من ضالٍّ تائه قد هدوه، فهم أهل خشية الله. قال تعالى:((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)), ومهما صِيغت النعوت والمدائح في فضائلهم فلن تُوَفِّيهم حقهم.

أَهــلاً وَسَهـلاً بِـاللَّذيـنَ أَوَدُّهُـم * وَأُحِـبُّهـُـم فــي اللهِ ذي الآلاءِ
أَهـلاً بِقَـومٍ صـالِحيـنَ ذَوي تُقًى * غُــرِّ الوُجـوهِ وَزَيْـنِ كُــلِّ مَــلاءِ
يَـسـعَوْنَ فـي طَـلَبِ الحَديثِ بِعِفَّةٍ * وَتَــوَقُّرٍ وَسَـكـيـنَـةٍ وَحَـيــاءِ
لَهُمُ المَهابَةُ وَالجَلالَةُ وَالنُّهى * وَفَـضــائِل جَـلَّت عَـنِ الإِحـصــاءِ
وَمِـدادُ مـا تَـجـري بِهِ أَقـلامُهُـم * أَزكـــى وَأَفـضَـلُ مِـن دَمِ الشُهَـداءِ
يــا طـالِبـي عِـلمَ النَبِـيِّ مُـحَمَّدٍ * مــا أَنــتُـمُ وَسِـواكُـمُ بِـسَــواءِ

أيّها المسلمون, لقد كان شيخنا سيدي الحاج محمد بلكبير على موعد مع التاريخ, لِمَا أملَاه عليه واجبه, واجب التعلّم, وواجب التعليم, ثم سار على دَرْب مَن سبقه من العلماء الرابنييّن, ممّن ورث عِلمه عنهم. ومَن سار على الدرب وصل, فصار ربانيًّا. كما صاروا, إمتثالًا لقوله تعالى:((وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)), والرباني هو العالم بالفقه والحكمة من المصلحين, يَردّ أمور الناس بتعليمه إيّاهم الخير, ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم, ولَا يقال للعالم رباني حتى يكون عالما معلِّما عاملا.

ولَا عجب أن يُسمّى شيخنا سيدي الحاج محمد بلكبير بالرباني, لأنّ العلماء يربّون العلم, يقومون به, يَعْلمون جزئياته قبل كليّاته,

وفروعه قبل أصوله, ومقدمّاته قبل أواخره, فتجده رحمه الله يركّز في تربيته لطلبته على ثمرة العلم, وهي خوف الله تعالى, لقد كان شيخنا رحمه الله مصلحا عظيما, يُصلِح أمور المسلمين, يُوَجّه الناس للحق, ويثبّتهم عليه, ولَا سِيَما عند نزول الفتن العظيمة, وحلول النوازل الجسيمة, كما قال تعالى:((وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا)).

عاش رحمه الله في فترة إستعمار صليبي غاشم, ينشر الجهل ويحارب الإسلَام, فلم يمنعه رضي الله عنه ذلك من القيام بواجب التجديد لِما اندرس من معالم الدين, مصداقا لنبوّة سيّدنا ومولَانا رسول الله, صلى الله عليه وسلم, القائل فيما رواه أبو داود عن الصحابي الجليل سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه, عن رسُولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلّم أنه قال:((إنَّ اللَّهَ يبعَثُ لِهذِه الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سَنةٍ من يجدِّدُ لَها دينَها)).

أيّها المسلمون. عاش رضي الله عنه مع نشِره للعلم يُسدي النصيحة للمسلمين, ويبذلها لهم على اختلَاف شرائحهم, وكافّة مستواياتهم, والدِّين النصيحة. روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن تمِيمٍ الدَّارِي رضي الله عنه: أنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم قال:((الدِّينُ النَّصيحةُ، الدِّينُ النَّصيحةُ، ثلاثًا. قالوا: لِمَن يا رسولَ اللهِ؟ قال: للهِ، ولكِتابِه، ولرسولِه، ولأئمَّةِ المسلِمينَ وعامَّتِهم)).

لهذا عاش رحمه الله عظيم الشفقة والرأفة بالمسلمين, يسعى في مصلحتهم ومنفعتهم على الدوام, لأنّ العلماء العاملين أمثال شيخنا

سيدي الحاج محمد بلكبير, رضي الله عنهم, أرأف بأمّة النبي صلى الله عليه وسلمَّ, وأشفق عليهم من آبائهم وأمّهاتهم.

إنتهت إليه رحمه الله الرحلة في طلب العلم. وناخت ببابه مطايا العلماء والوزراء والرؤوساء. وقصده أهل المحبّة والوفاء. فجادت نفسه لكل صاحب طلبٍ بمطلوبه.

فقد تَخَرَّجَ في مدرسته أزيد من 70 ألف حافظ لكتاب الله بين سنتي 1952م و1992م. ولا يزال مدد الله متواصل، وكان تلامذته من مختلف جهات القطر, ومن خارج الجزائر: كالسودان والمغرب وتونس وليبيا وفرنسا والنيجر وتشاد ومالي. وكان إطعامهم وإيوائهم وتدريسهم على نفقته الخاصة, رضي الله عنه.

ذَكر الإمام اليوسي أنّ الشيوخ ثلاثة: شيخ عِلم. وشيخ تربية. وشيخ ترقية. فإذا اجتمعت الثلاثة في واحد فهو الشيخ الكامل. قلتُ: وقد اجتمعت الثلاثة وزيادة عليها في سيّدنا وشيخنا وأستاذنا وقُدوتنا ومربّينا الشيخ سيدي الحاج محمد بلكبير, طيّب الله ثراه, ورضي عنه وأرضاه, وجعل الجنّة متقلَّبه ومثواه.

حياة الشيخ سيدي الحاج محمد بلكبير حياة عامرة بالعلم والذِّكر والصدقة وأعمال البر سَوَاد الليل وبَيَاض النهار, زاره العلماء فاندهشوا، وجَلَسَ الدكاترة والمشايخ في حلقات دروسه فانبهروا، ورأى الناس سيرته العطرة فحارت عقولهم في جلائل أعماله ومناسك بطولاته.

مدرسة الشيخ العالم العلاّمة سيدي الحاج محمد بلكبير رضي الله عنه جامعة من جامعات العلم الحقيقية بكل ما تحمله كلمة ((جامعة)) من ثِقَل ورنين وطنين في عصرنا هذا.

أوّل ما يُلفت الزائر إليها لباس الطلبة المُعمَّمين وقد ملؤوا مسجد الشيخ وباحات المسجد وعليهم من الله أنوار وأسرار, وقد بلغ عددهم سنة 1988 عندما كنت تلميذًا هناك 1200 طالب.

يُدرّسهم الشيخ متون العقيدة: كالسنوسية، والجوهرة، والأَوْجلي، وإضاءة الدُّجُنَّة في اعتقاد أهل السنّة.

ومتون الفقه: كالمرشد المعين لابن عاشر، والعبقري، وأسهل المسالك، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر الشيخ خليل.

ومتون اللغة: كالأجرومية، ومُلْحَة الإعراب، وألفية ابن مالك.

ومتون الأخلاق والسلوك: كسراج طُلاّب العلوم، ونصيحة الهلالي، وهدية الألباب، والحِكم العطائية.

ومتن البيقونية في علم الحديث....

أمّا أَوْجب الواجبات فهو حِفظ الراتب اليومي من القرآن الكريم على رواية ورش، وقراءات المراجعة الفردية والجماعية، واستظهار السُّوَر والأحزاب، وضرورة استظهار القرآن الكريم كاملا وفي يوم واحد لمن أتمّ حِفظ كتاب الله, وكثيرًا ما سمعتُ الشيخ يترنّم طربًا بهذا البيت:

وقَدّمِ الأَهَمَ فإنَّ العِلَمَ جَمْ * والعُمرُ ضَيفٌ زَارَ أو طَيفٌ أَلَمّْ

أهمّه عقائـدٌ ثـم فـروعْ * تصوّفٌ وآلة بها الشروعْ

أيّها المسلمون, وممّا تميّز به شيخنا سيدي الحاج محمد بلكبير, رضي الله عنه, واستحقّ به كلّ المحبّة, إعتزازه بنفسه, وترفّعه عن الدنايا والسفاسف, فكان يطلب العز من الله العزيز, منتصب القامة, مرتفع الهمّة, إنّها أنفة عالم رباني, أن يصغر لسلطان, أو يتضّع لغني, فلم يضع نفسه موضع الخسّة والمهانة أبدا, فيتذلّل للحكّام

والأغنياء لنيل مطالبه, أو الخوف منهم, كان لَا يضع جبهته الكريمة إلاّ في السجود للحيّ القيّوم. ممتثلاً قول الشاعر العربي:

وأُكرِمُ نفسي إنّني إنْ أهَنتُها * وحقّكَ لمْ تَكرُم على أحدٍ بَعدي

أيّها المسلمون. فمَن أكرمه الله, فالواجب تقديره وتكريمه, ومَن عظّمه الله, فواجب تقديسه وتعظيمه, إنّ من أَحَبّ اللهَ عزّ وجلّ أحبَّ بالضرورة مَن أحبّه الله, فرُبّ أُناس طالحين بمحبّتهم للصالحين, وتقديرهم لأولياء الله المتقّين, هداهم الله للخير, ووفّقهم لأعمال البِرّ, لأنّهم عظَّموا ما عظَّم الله, وعظّموا حرمات الله, قال تعالى:((وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ)).

وإنّ حَصْر فضائل أهل الله, والإحاطة بكل مناقبهم لَا يستطيعه أحد, لأنّه مستمَدّ من حضرة الإطلَاق, ولأنّهم ورثوا الذي قال صلوات ربي وسلَامه عليه:((إنّما بُعثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلَق)), فلَا مَطمع في حَصْر مناقبهم, وإنّما راحة المحب في ذِكر أوصاف محبوبه.

ومن علَامات محبّة الصالحين: تزيين المجالس بذِكْرهم, وذِكْر مناقبهم, وتحريك القلوب نحو الشَّوْق إليهم.

فتعرّضوا رحمكم الله لنفحة الصالحين, وحضور مجالسهم, وتعلّق القلوب بهم, فإنّها حقيقة التقوى.

واسمعوا رحمكم الله, دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم وأمِّنوا عليه. إذ يقول: اللَّهُمَّ ارزُقني حُبَّكَ، وحُبّ مَن أَحبَّك, وحُبَّ مَنْ يَنْفَعُني حُبُّهُ عندَك، وحُبّ ما يُقرّبني إلى حُبِّك, واجعَلْ حُبَّك أَحَبَّ إليَّ من الماء البارِد على الظّمأ.

اللهمّ ارحم شيخَنا سيدي الحاج محمد بلكبير, وعلماءَنا السابقين, ووفِّق تلَامذته والمحبِّين, لِمَا تحبُّه وترضاه, وتولّنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين, اللهم علِّمنا ما ينفعنا, وانفعنا بما علَّمتنا, وزدنا

علما, وارض اللهمّ عن صاحب الذِّكرى الشيخ سيدي الحاج محمد بلكبير, وجازِهِ عنّا وعن الإسلَام خير الجزاء, وانفعنا بعلومه وببركاته ومحبّته.

واجعل اللهمّ في أعلى عليّين مقامه ونُزُله, وصُبّ على قبره سحائب المغفرة والرضوان, وعطِّر ضريحه بعقيق الرحمة والإحسان, وقدِّس سرّه, وارفع درجته, وأكرِم نُزُله ومثواه.

اللهمّ ارفع قدر شيخنا سيدي الحاج محمد بلكبير, كما رفع سنّة نبيّك صلى الله عليه وسلم في الدنيا, وأعظِم شأنه يوم القيامة, كما شهدنا له بالفضل والإمامة, ونوِّر قبره بأنوار رضاك.

اللهمّ أكرمنا بما أكرمتَ به أولياءَك الصالحين, وأحبابَك المقرّبين, واجعلنا من عبادك الأتقياء الأنقياء, بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين, يا ربّ العالمين, وآ خِر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين.اهـ

جمعه العبد الفقير: سليم بن الطّاهر رحموني

إمام خطيب ومدرِّس بمسجد التجانية بمدينة بسكرة

- الجزائر -